

المحاضرة الثانية

العوامل المساعدة على التواصل الحضاري بين الجزائر وإفريقيا جنوب الصحراء

1.- العامل الجغرافي:

إن العامل المهم الذي مهد للترابط والتواصل الحضاري بين الجزائر ومنطقة جنوب الصحراء هو الموقع الجغرافي للمنطقتين وانفتاحهما على الصحراء الكبرى، فالتقارب الجغرافي بينهما ساهم بشكل كبير في مد جسور التواصل بين الضفتين، فاشتهرت الجزائر بحواضر تجارية شكلت نقاط عبور رئيسية للقوافل العابرة للصحراء نحو بلاد السودان، كحاضرة ورجلان التي كانت منفذا مهما في التجارة الصحراوية منذ العهد الرستمي، فاكتمست طابع بوابة السودان، أما مدينة تلمسان فقد عوضت مدينة تيهرت وصارت قاعدة للمغرب الأوسط، فأصبحت هي الأخرى حلقة وصل تجارية مهمة بين مختلف أصقاع المغرب والمشرق الإسلاميين من جهة، وبين السودان والأندلس من جهة أخرى.

ومن جهتها كانت حاضرة توات ملتقى الطرق لعدد كبير من القوافل التجارية القادمة من الشمال والمنطقة نحو بلاد السودان الغربي، وقد تحدث ابن خلدون عن هذه الأهمية الاقتصادية بقوله "...فمنها انطلق نشاطهم التجاري إلى أوروبا والسودان مثل توات وبودة، وتمنيط، وورجلان وتيكولارين..."

2.- النشاط التجاري:

شكلت التجارة إحدى وسائل الاتصال المثمر بين الجزائر وإفريقيا جنوب الصحراء ففي الحواضر الجزائرية كانت تجتمع القوافل القادمة من الشمال مع القوافل القادمة بلاد السودان، فكانت بمثابة محطات ومراكز تجارية كتلمسان التي ذكرها الحسن الوزان قائلاً: "ومع ذلك فالسلع تروج بكثرة في مملكة تلمسان ولأنها تشكل مرحلة في الطريق المؤدية إلى بلاد السودان"، وبذلك بلغت تلمسان حظها في التجارة الصحراوية إلى أن صرح السلطان الزياني أبو حمو موسى الأول: "لولا الشناعة لم أنزل في بلادي تاجرا من غير تجار الصحراء الذين يذهبون بخبيث السلع ويأتون بالتبر الذي كل أمر الدنيا له تبع"

كما كان للمناطق الصحراوية حضور قوي و متميز في تجارة القوافل ونخص بالذكر هنا منطقة توات كونها منطقة عبور وممر رئيسي للقوافل خاصة في عهد مملكة سنغاي وبعد تراجع مكانة الطريق الغربي الذي يربط سجلماسة بولاتة و غاو وذلك نتيجة الاضطرابات السياسية ووصول الأوربيين إلى السواحل الغربية للقارة فأصبح الطريق غير آمن، وتحديث حسن الوزان عن نشاط طريق توات – قورارة- غاو قائلاً: "فقوافل تلمسان

كانت تلتحق في طريقها إلى بلاد السودان بفكيك وتنحدر مع واد زوسفانة ثم وادي الساوره إلى تسابيت وهي ملحقة غربية لتكورارين، ومنها إلى بلاد غاو".

وعليه كانت القوافل التجارية خاصة التلمسانية والتواتية من أهم الوسائل التي ساعدت إلى حد كبير في نشر الإسلام وتنشيط الحركة الثقافية ببلاد السودان الغربي بنقلها للكتب والمخطوطات التي راجت تجارتها، خصوصا وأن القافلة كانت تضم بين أفرادها ثلة من العلماء والفقهاء والدعاة.

الطرق التجارية:

أعتبرت المسالك التجارية إحدى أهم العوامل الرئيسية التي ساهمت في زيادة التواصل الحضاري بين الجزائر وبلاد جنوب الصحراء، وعليه هناك عدة مسالك كانت تربط المنطقتين، وقد اختلف المؤرخون والباحثون في بدايات هذه المسالك ونهاياتها، كما ركز بعضهم على أهمية بعضها دون غيرها، والمتأمل في حركة التجارة بين المنطقتين يجد أن المسالك المتبعة نوعان، أحدهما أفقي من الشرق إلى الغرب، والعكس، والآخر رأسي يأتي من أعماق إفريقيا جنوب الصحراء إلى الشمال، ومن أهم هذه الطرق والمسالك التي تربط الجزائر ببلاد جنوب الصحراء نجد:

أ.- مع شرق الجزائر:

الطريق الرابط بين سكسكة وتمبوكتو: يمر عبر قسنطينة ثم أمقيد والهقار مارًا بباتنة وبسكرة وتقرت وورقلة والبيوض، وأمقيد، والهقار وتيميساو، وأيفروان، إلى مبروك وتمبوكتو، وقد مر على جانب هذا الطريق الضابط الفرنسي فلاترز عبر حوض أغرغر حينما حاول اختراق الصحراء عام 1881، ويضطر التجار المارين بهذا الطريق اجتياز صحراء جافة وخطيرة، ولهذا الطريق فرع يبدأ من جنوب بسكرة ويتجه إلى وادي سوف ومن هناك إلى غدامس، وغات وجبادو، وبلما، وفرع ثالث من البيوض إلى عين صالح.

طريق طرابلس تمبوكتو:

يمر عبر سناون وغدامس وتيمياسين، والبيوض، أين يتصل بطريق قسنطينة تمبوكتو، ولهذا الطريق فرع إلى غات وبئر عسيو وأغاديس، ثم إلى تمبوكتو، ومنها إلى سوكتو وكاتسينا غربا، وإلى أقاديم، وماو شرقا.

ب.- مع وسط الجزائر وسط:

1.- طريق الجزائر تمبوكتو: يتجاوز طول هذا الطريق 3500 كلم يمر عبر البليدة، وبوغار، الأغواط، غرداية، المنيعه، عين صالح، أقبلي، بئر تيريشومين حيث يلتقي بطريق

توات – تمبوكتو، ولهذا الطريق فرع ثاني من عين صالح إلى بئر عسيو، حيث يتفرع إلى فرعين، فرع إلى أقاديم، وماو شرق بحيرة تشاد، وإلى أقاديم وكوكا جنوبا، وفرع إلى الجنوب الغربي نحو أغاديس، حيث يتفرع هو الآخر إلى فرعين، فرع إلى سوكتو، وفرع إلى كاتسينا ببلاد الهوسا.

ج.- مع الغرب الجزائري:

طريق وهران تمبوكتو: يمر هذا الطريق عبر الخيثر، مشرية، عين الصفراء، وفقيق، ويتبع مجرى واد زوزوفانة إلى إيغلي، حيث يلتقي بمسلك فاس إلى تمبوكتو، ولهذا الطريق فرع آخر إلى الشرق يبدأ من الخيثر إلى البيض، والأبيض سيدي الشيخ والمنقب، وتوات أين يلتقي بمسالك وهران، وفاس، ومكناس إلى تمبوكتو، سلك هذا الطريق الضابط الفرنسي كولونيو عام 1860.

طريق مراكش تمبوكتو: يمر هذا الطريق عبر تارودانت وتاوريت، وتندوف، ويخترق رمال إيقدي وعرش شاش ويتجه نحو تاوديني، كما يخترق منطقة الجوف شرقا مارا بأوتان، وأروان، نحو تمبوكتو، ولهذا الطريق فرع ينطلق من تندوف باتجاه الجرف الأصفر، وأوقلت العزل، وقرونة، وزمور، والقلته، وساميت، وحاسي بوتلان، ومن هناك يتجه فرع منه إلى تمبوكتو، وفرع إلى قصر البرشان وعطار وأوجيفت وتتورت على شاطئ المحيط الأطلسي.

وبذلك يمكن القول بأن الجزائر كانت تضم خلال الفترة الحديثة شبكة معتبرة من الطرق كانت تصل جل المراكز العمرانية في جنوب الصحراء وتربط أغلب الجهات وتضمن الانتقال للأشخاص والقوافل، وتساهم في تصريف المنتوجات الفلاحية وإيصال الحاجات المعيشية للسكان.

ولم تبقى هذه الطرق التي ذكرناها ثابتة عبر الحقب الزمنية، فهناك ظروف سياسية وأمنية عملت على تغيير مسارها من فترة لأخرى، لكن الاتجاهات عموما حافظت على ثباتها ما دامت المراكز التجارية لم تفقد أهميتها.